

حياة أعظم الرسل

محمد في شبابه

# محمّد في شبابه

بُنِيَ العَزِيزُ ، إِنَّ مُحمَّدًا الْآنَ فِي  
شَبَابِهِ . وَعُمُرُهُ بَيْنَ الْعِشْرِينَ وَالْخَامِسَةِ  
وَالْعِشْرِينَ . وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كغَيْرِهِ مِنْ  
الشُّبَّانِ ؛ فَهُوَ الشَّابُّ الْكَامِلُ فِي أَخْلَاقِهِ  
وَأَدَابِهِ ، وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَلَا مَثِيلَ لَهُ بَيْنَ  
الشُّبَّانِ . فَالشُّبَّانُ الَّذِينَ فِي سِنِّهِ كَانُوا  
يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي الْمَلَاهِي ، وَيَشْرَبُونَ

الْخَمْرَ ، وَيرْتَكِبُونَ مِنَ الرَّذَائِلِ  
مَا يُرِيدُونَ ، وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَقْضِ  
لَحْظَةً فِي الْمَلَاهِي ، وَلَمْ يَمَسَّ الْخَمْرَ  
بِشَفْتِيهِ ، وَلَمْ يَرْتَكِبْ خَطَاً فِي حَيَاتِهِ .  
فَاللَّهُ قَدْ حَفِظَهُ مِنْ لَهُوِ مَكَّةَ وَمَلَاهِيهَا ،  
وَشُبَّانِهَا . وَلَمْ يُفَكِّرْ مُحَمَّدٌ فِي تَسْلِيَةٍ  
أَوْ لَهُوٍ كَزُمْلَائِهِ مِنَ الشُّبَّانِ ، بَلْ قَضَى  
وَقْتَ فَرَاغِهِ فِي الْإِعْجَابِ بِجَمَالِ  
الطَّبِيعَةِ ، وَفِي السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ الصَّافِيَةِ ،  
وَفِي التَّفَكِيرِ فِي عَجَائِبِ الْأَرْضِ ،

وَالْحَيَاةِ نَفْسِهَا ، وَفِي الْبَحْثِ الْعَمِيقِ عَنِ  
الْخَالِقِ الْعَظِيمِ ، لِهَذَا الْعَالَمِ الْمُنَظَّمِ  
الْجَمِيلِ . وَكَانَ مُحَمَّدٌ يُفَكِّرُ فِي  
مُشْكِلَاتِ بِلَادِهِ ، وَمُشْكِلَاتِ شَعْبِهِ .  
وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَعَجَبُ حِينَمَا يَرَى النَّاسَ  
يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا وَتَمَاثِيلَ لَا تَنْفَعُ  
وَلَا تَضُرُّ ، وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ،  
وَيَدْعُونَهَا وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا .

وَقَدْ اهْتَدَى بِتَفَكُّيرِهِ إِلَى أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ  
الْجَمِيلَ لَمْ يُخْلَقْ وَحْدَهُ ، بَلْ خَلَقَهُ اللَّهُ



الْخَالِقُ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ ، وَهَدَاهُ تَفَكِيرُهُ إِلَى  
أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ ،  
وَيَجِبُ أَنْ تُهْدَمَ وَتُزُولَ .

فَاللَّهُ قَدْ حَفِظَهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا مِنْ  
كُلِّ عَمَلٍ لَا يُرْضِيهِ ؛ لِيُعِدَّهُ لِلرَّسَالَةِ  
الْعَظِيمَةِ ، وَلِيَكُونَ مَثَلًا كَامِلًا لِأُمَّتِهِ فِي  
الْعَالَمِ كُلِّهِ .

التَّعْلِيمُ : كَانَ التَّعْلِيمُ فِي عَصْرِ  
الرَّسُولِ يُعَدُّ مِنَ الْكَمَالِيَّاتِ ، وَلَمْ يَكُنْ  
مُيسِّرًا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ . وَكَانَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ

رَغْبَةً قَوِيَّةً فِي أَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَلَكِنْ فَقَرَ عَمُّهُ  
أَبَى طَالِبٍ مَنَعَهُ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَى  
الْمَدْرَسَةِ ، فَكَانَ أُمِّيًّا لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ  
وَالكِتَابَةَ ، وَلَمْ يَذْهَبْ إِلَى مَدْرَسَةٍ ، وَلَمْ  
يَحْضُرْ لَهُ مُؤَدِّبٌ خَاصٌّ ، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّمَ فِي  
مَدْرَسَةِ الْحَيَاةِ ، فَكَانَ يَذْهَبُ مَعَ عَمِّهِ  
دَائِمًا ؛ لِيَشْتَرِكَ فِي الْاجْتِمَاعَاتِ الَّتِي  
يَجْتَمِعُهَا مَعَ كِبَارِ مَكَّةَ وَشُيُوخِهَا .  
وَرَافَقَ عَمُّهُ فِي كُلِّ الْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِي  
عُمِلَتْ فِي فَنَاءِ الْكَعْبَةِ وَقَتِ الْحَجِّ .

وَاسْتَمَعَ إِلَى الْخُطَبَاءِ الْمَشْهُورِينَ ، وَهُمْ  
يَخْطُبُونَ ، وَالشُّعْرَاءِ الْمَعْرُوفِينَ ، وَهُمْ  
يُلْقُونَ قَصَائِدَهُمْ ؛ حِينَمَا يَحْضُرُونَ إِلَى  
مَكَّةَ . لَمْ يَذْهَبْ مُحَمَّدٌ إِلَى مَدْرَسَةٍ ،  
وَلَكِنَّ اللَّهَ عَوَّضَ عَلَيْهِ مَا حُرِمَهُ ، فَوَهَبَهُ  
عَقْلاً يَفُوقُ كُلَّ الْعُقُولِ ، وَذَاكِرَةً تَفُوقُ  
كُلَّ ذَاكِرَةٍ ، وَذَكَاءً يَفُوقُ كُلَّ ذَكَاءٍ ،  
وَعِلْمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ قَالَ تَعَالَى :  
﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،  
وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ



عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿٦﴾ . وَمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ  
الشُّبَّانِ ، فَكَانَ أَحْسَنَ قَوْمِهِ خُلُقًا ،  
وَأَصْدَقَهُمْ قَوْلًا ، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً ،  
وَأَحْسَنَهُمْ جِوَارًا وَأَكْثَرَهُمْ حِلْمًا . وَقَدْ  
سَمَّوْهُ الْأَمِينَ لِمَا امْتَّازَ بِهِ مِنَ الْأَمَانَةِ ،  
وَالْعَدْلِ ، وَالتَّوَاضُّعِ ، وَالْكَرَمِ ،  
وَالشَّجَاعَةِ ، وَالْحَيَاءِ ، وَالْوَفَاءِ ، وَالْعِفَّةِ ،  
وَالرَّحْمَةِ ، وَالْعَطْفِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ،  
وَالدِّفَاعِ عَنِ الْمَظْلُومِينَ . وَقَدْ شَهِدَ لَهُ  
أَعْدَاؤُهُ بِالْعَظَمَةِ الْخُلُقِيَّةِ ، وَحَفِظَهُ اللَّهُ ،



فَلَمْ يَرْتَكِبْ أَى رَذِيلَةٍ . فَكَانَ يَحْتَرِمُهُ كُلُّ  
مَنْ رَأَاهُ وَاتَّصَلَ بِهِ . وَقَدْ وَثِقَ بِهِ كُلُّ مَنْ  
عَامَلَهُ ، وَصَدَّقَهُ كُلُّ مَنْ تَحَدَّثَ مَعَهُ .

اشْتَغَلَ أَحْيَانًا بِالتَّجَارَةِ ، وَعُرفَ  
بِالْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ فِي مُعَامَلَاتِهِ . فَإِذَا  
حَضَرَ لَهُ الْمُشْتَرِي ذَكَرَ كُلَّ الْحَقِيقَةِ لَهُ ،  
وَأَظْهَرَ مَا فِي بَضَاعَتِهِ مِنْ عُيُوبٍ . وَكَانَ  
أَمِينًا صَادِقًا مُخْلِصًا فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ  
وَمَا يَفْعَلُهُ . وَلِذَا كَانَ جَدِيرًا بِلَقَبِ  
الْأَمِينِ .

لَقَدْ أَدَّبَهُ رَبُّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ ، وَجَعَلَهُ  
خَيْرَ قُدْوَةٍ لِإِرْشَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَى  
التَّمَسُّكِ بِالْفَضِيلَةِ ، وَتَجَنُّبِ الرَّذِيلَةِ .

سَفَرُهُ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ لِلْسَّيِّدَةِ  
حَدِيثَةٌ :

كَانَ أَبُو طَالِبٍ فَقِيرًا ، وَعِنْدَهُ أَطْفَالٌ  
كَثِيرُونَ . وَلِهَذَا فَكَّرَ فِي أَنْ يَجِدَ عَمَلًا  
لِمُحَمَّدٍ يَكْسِبُ مِنْهُ عَيْشَهُ ، وَقَالَ لَهُ :  
لَقَدْ سَاءَتْ الْحَالُ ، وَقَسَا الزَّمَانُ عَلَيْنَا .  
وَلَيْسَ لَنَا مَالٌ وَلَا تِجَارَةٌ . وَقَدْ اعْتَادَتْ

خَدِيجَةُ أَنْ تُرْسِلَ إِلَى الشَّامِ رَجُلًا يُنُوبُ  
عَنْهَا لِيَعْتَنِيَ بِتِجَارَتِهَا ، وَيَنْتَفِعَ بِالتَّجَارَةِ  
لَهَا . فَلَوْ ذَهَبْتَ إِلَيْهَا لَفَضَّلْتُكَ عَلَى  
غَيْرِكَ ؛ لِمَا تَعْرِفُهُ عَنْكَ مِنَ الطَّهَارَةِ  
وَالْأَمَانَةِ . وَإِنْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى  
الشَّامِ ؛ لِأَنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ الْيَهُودِ .  
وَلَكِنَّا مُضْطَرُونَ إِلَى ذَلِكَ .

كَانَتْ خَدِيجَةُ سَيِّدَةً غَنِيَّةً جَدًّا ، وَمِنْ  
أُسْرَةٍ نَبِيلَةٍ بِمَكَّةَ . وَقَدْ اسْتَثْمَرَتْ مَالَهَا  
فِي التَّجَارَةِ ، فَنَجَحَتْ كُلَّ النَّجَاحِ .



قَالَ مُحَمَّدٌ لِعَمِّهِ : أَرْجُوا أَنْ تُرْسِلَ إِلَيَّ  
 خَدِيجَةً فِي ذَلِكَ . فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنِّي  
 أَخَافُ أَنْ تَخْتَارَ غَيْرَكَ ، وَتَضِيعَ عَلَيْكَ  
 الْفُرْصَةُ . فَبَلَغَ خَدِيجَةَ مَا حَدَّثَ مِنْ  
 الْكَلَامِ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَعَمِّهِ . كَمَا بَلَغَهَا مِنْ  
 قَبْلِ أَنْهُ صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ ، عَظِيمٌ فِي أَمَانَتِهِ ،  
 فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : دَعَانِي إِلَى أَنْ  
 أُرْسِلَ إِلَيْكَ مَا بَلَغَنِي مِنْ رَغْبَتِكَ فِي السَّفَرِ  
 إِلَى الشَّامِ لِلتَّجَارَةِ . وَإِنِّي سَأُعْطِيكَ  
 ضِعْفَ مَا أُعْطِيَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِكَ .

فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعَمِّهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ هَذَا  
 رِزْقُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ . فَلَمَّا خَرَجَتْ  
 الْقَافِلَةُ إِلَى الشَّامِ خَرَجَ فِيهَا مُحَمَّدٌ ،  
 لِيَتَّجِرَ لِحَدِيدَجَةٍ فِي مَالِهَا ، وَرَافَقَهُ مَيْسَرَةٌ  
 كَبِيرٌ خَدَمَ خَدِيدَجَةَ . وَسَارَتِ الْقَافِلَةُ  
 حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى بُصْرَى « مَوْضِعٍ  
 بِالشَّامِ » فَتَنَزَلَ الْجَمِيعُ لِيَسْتَرِيحُوا عِنْدَ  
 صَوْمَعَةٍ <sup>(١)</sup> الرَّاهِبِ بَحِيرَى إِلَّا رَسُولَ  
 اللَّهِ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ لِيَسْتَرِيحَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ

(١) مَكَانٌ تَخَاصُّ بِالْعِبَادَةِ .

فِي السُّوقِ قَرِيبًا مِنَ الصَّوْمَعَةِ . وَكَانَ فِيهَا  
 رَاهِبٌ مِنْ رُهَبَانِ الشَّامِ يُسَمَّى نَسْطُورَى ،  
 فَنَظَرَ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ هَذَا  
 الَّذِي تَحْتَ الشَّجَرَةِ ؟ فَأَجَابَ مَيْسَرَةُ :  
 إِنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ . فَبَشَّرَ نَسْطُورَى  
 بِنُبُوءَتِهِ ، وَقَالَ : « هَذَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ .  
 أَتَمَنَّى أَنْ أُدْرِكَهُ حِينَ يُبْعَثُ بِالرَّسَالَةِ .  
 ثُمَّ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ سُوقَ بُصْرَى ،  
 فَبَاعَ بِضَاعَتَهُ الَّتِي أَتَى بِهَا مِنْ مَكَّةَ ،  
 وَاشْتَرَى مَا أَرَادَ مِنَ الْبِضَاعَةِ ، وَرَبِحَتْ



خَدِيجَةٌ مِنْ هَذِهِ الرَّحْلَةِ مَا لَمْ تَرْبَحْهُ مِنْ  
قَبْلُ .

وَقَدْ أُعْجِبَ مَيْسِرَةُ بِمُحَمَّدٍ كُلِّ  
الْإِعْجَابِ ؛ لِأَخْلَاقِهِ الْكَامِلَةِ ، وَتَوَاضُعِهِ  
وَعَظَمَتِهِ ، وَقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهِ . ثُمَّ أَخَذَتْ  
الْقَافِلَةَ فِي الرَّجُوعِ . وَحِينَمَا قُرِبَتْ مِنْ  
مَكَّةَ أَشَارَ مَيْسِرَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ بِأَنْ يَسْبِقَ ،  
وَيَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُيَسِّرُ خَدِيجَةَ بِالرَّبْحِ  
الْعَظِيمِ . فَسَبَقَ مُحَمَّدٌ ، وَدَخَلَ مَكَّةَ .  
فَرَأَتْهُ خَدِيجَةٌ وَهِيَ فِي شُرْفَةٍ ( فَرَانْدَة )  
بَيْتِهَا الْجَمِيلِ . فَزَلَّتْ لِتُقَابِلَهُ ، وَأَخْبَرَهَا

مُحَمَّدٌ بِمَا حَدَّثَ فِي رِحْلَتِهِ ، وَمَا بَاعَهُ ،  
وَمَا رَبَحَهُ وَمَا اشْتَرَاهُ . فَسَرَّتْ خَدِيجَةُ  
سُرُورًا كَثِيرًا لِنَجَاحِ مُحَمَّدٍ فِي رِحْلَتِهِ .  
وَضَاعَفَتْ لَهُ الْأَجْرَ الَّذِي حَدَّثَتْهُ لَهُ مِنْ  
قَبْلُ .

وَدَّعَ مُحَمَّدٌ خَدِيجَةَ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى  
بَيْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .  
وَكَانَ مَيْسِرَةً يَحْفَظُ كُلَّ مَا يُلَاحِظُهُ  
مِنْ أَحْوَالِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَمَا يَرَاهُ مِنْ  
تَكْرِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُ ، وَعِنَايَتِهِ بِهِ فِي رِحْلَتِهِ  
وَعَمَلِهِ .

فَلَمَّا دَخَلَ مَيْسَرَةَ مَكَّةَ أَخْبَرَ خَدِيجَةَ  
عَنْ أَمَانَةِ مُحَمَّدٍ النَّادِرَةِ ، وَعَدَالَتِهِ التَّامَّةِ ،  
وَأَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَعَمَّا قَالَهُ الرَّاهِبُ  
عَنْهُ . وَفِي نِهَايَةِ حَدِيثِهِ قَالَ لَهَا :

إِنَّ مُحَمَّدًا لَا مَثِيلَ لَهُ بَيْنَ شُبَّانِ مَكَّةَ  
الَّذِينَ أَعْرِفُهُمْ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ .

وَكَانَ لِحَدِيثِ مُحَمَّدٍ الْعَظِيمِ  
وَمَيْسَرَةِ الْمُخْلِصِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِ  
خَدِيجَةَ ، فَتَحَوَّلَ إِحْتِرَامُهَا الْعَمِيقُ ،  
وَتَقَرَّبَتْهَا التَّامَّةُ بِمُحَمَّدٍ إِلَى حُبٍّ شَدِيدٍ ،  
كُلُّهُ طَهَارَةٌ وَإِعْجَابٌ بِخُلُقِهِ الْعَظِيمِ .